

اعجاز قرآن

درس چهاردهم

استاد : حجت الاسلام و المسلمین صادق نیا

آموزشیار : سرکار خانم حیدری

مناقشة القول بالصرفة :

تلك دلائل استند إليها أصحاب القول بالصرفة في ظاهر الأمر ، لكننا نعتقد أن

السبب الداعي لاختيارهم هذا الرأي أمر آخر وراء هذا الظاهر المريب ؛ إذ ليس فيما استمسكوا به ما يبعث على هذا الاختيار ، ولا سيما وأصحاب هذا القول هم جهابذة أقحاح وأئمة نقد وتمحيص ، ليسوا أهل تعسف في الرأي أو وهن في العقيدة والاختيار ! ومن ثم فإنها دلائل ظاهرية ومعاذير شكلية كان خلفها شيء آخر لعلّه رصين ، لأمر ما جدع قصير أنفه !

نعتقد أنهم واجهوا أولئك الذين قصروا وجه الإعجاز في جانب لفظ القرآن وحروفه وجودة سبكه وأسلوبه ، وهو جانب جدّ خطير ، يعلو به شأن الكلام ويرتفع قدره ، إلا أنه ليس بمثابةٍ بحيث يخرج ه عن حدّ المعتاد غير الممكن على فصحاء الكلام وبلغاء البيان ، ففي كلام العرب وغيرهم من أمم ذات لغة راقية مقطعات رائعة ، من بديع النظم ورفيع النثر مما يُبهر ويُعجب ! ونرافقهم في هذا الشأن ، غير أن جهة الإعجاز البياني للقرآن - على ما سنذكر - لا تنحصر في جودة سبكه وروعة نظمه ، والوفير من بدائع المُحسنات اللفظية ، إنّ هذا كله إنّما هو جزء سبب لروعة القرآن الباهرة ، وإنّ وراءه سبباً آخر أقوى هو كامن وراء هذا القالب الجميل ، هي : خلاصة روحه ، ونسمة روحه ، فخامة معنى في أناقة تعبير ، وهما مجتمعان وليدان توأمان ، الأمر الذي يعزّ وجوده ، بل ينعدم في كلام غيره ، ولا سيما مع هذا الإطناب في الكلام والتنوّع في المرام ، ميزة خصّ بها القرآن الكريم .

وبعد ، فإليك بعض النقاش مع دلائل القوم في ظاهر المقال :

١ - ليس في كلام العرب ما يضاهي القرآن :

فإذا كانت روعة القرآن منبثقةً من تلاحم في جمال لفظه مع جلال معناه ، ومن بديع صورته مع كبرياء محتواه ، فأين يا ترى يوجد له مثيل في مثل هذه الرفعة وذلك الشموخ؟! نعم ، سوى شؤون كانت مبتدلةً ، ومعانٍ كانت هابطةً وساقطةً إلى حدّ بعيد كانوا يتداولونها ، ولمقارنة عابرة بين آيات من الذكر الحكيم وأروع مقطعات العرب لتكفي شاهداً على ذلك البون الشاسع !

جاء القرآن بسبكٍ غريبٍ على العرب ، وعجيب على الناس أجمعين ، لا هو شعر ولا هو نثر كنثرهم ، نثر في خاصية الشعر ، لا هدر سجع ، ولا هذر كهانة ، حلوٌ رشيق ، وخلوبٌ رفيع ، إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لطلاوة ، وإنَّه لثمرٌ أعلاه ، مغدقٌ أسفله ، إنَّه يعلو وما يُعلَى ، وإنَّه لِيُحطَّم ما تحته ! كلام قاله عظيم العرب وخلاصتها الفذُّ الفريد الوليد^١.

كانوا كلِّما حاولوا مضاهاته افتضح بهم الأمر وفشلوا في نهاية المطاف ، وهكذا على مرِّ العصور ، الأمر الذي سجَّل على محياه الكريم : أنَّه لم يبقَ له نظير ، ولا يخلفه أبداً بديل !

فإن كان النظم وأصحابه إنَّما أرادوا المضاهاة في مجموع هذه الجوانب والمزايا اللفظية والمعنوية ، فنحن نطالبهم أن يأتوا بشاهد من كلام العرب أو غيرهم من باب المثال ، ولكنَّهم أعجز من أن يأتوا بمثله ولو اجتمعوا له .

وإنَّ أرادوا المباهاة ببذائع بعض روائع الكلام فهذا شيء لا ننكره ، ولكنَّه ليس كلُّ شأن الإعجاز ، ولا وقع التحدِّي بمثله .

وقوله تعالى : (وَإِذَا تُلِّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)^٢ .

قوله قالها النضر بن الحارث بن كلدة ، كان من زعماء قريش ومن شياطينهم الأفاكين ، صاحب ثروة ونفوذ كلمة ، كان يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم ، فلما قدَّم مكَّةَ سمع كلام النبي (صَلَّى الله عليه وآله) والقرآن ، فزعم أنَّه من قبيل ذاك ، فحسب من نفسه القدرة على مماثلته ، كما كان قد تعلَّم بعضاً من أحاديث ملوك فارس (أساطير رستم واسفنديار) فكان يقصُّها على جهلاء العرب استحواداً عليهم لئليهم عن حديث الإسلام وذكريات القرآن ، زاعماً أنَّه بذلك يُقابل رسول الله في كلامه وتلاوة قرآنه ، كان إذا جلس رسول الله (صَلَّى الله عليه وآله) مجلساً يدعو الناس إلى الله ، ويتلو عليهم آياته

^١ نعم ، نسب إلى الجعد بن درهم (مؤدَّب مروان بن محمد الملقَّب بالحمار ، آخر خلفاء بني أميَّة) القول بأنَّ فصاحه القرآن غير معجزة ، وأنَّ الناس يقدرون على مثلها ، وعلى أحسن منها ، قيل : هو أوَّل من صرَّح بذلك ، وتجراً عليه ، قال الأستاذ الرافعي : ولم يقل بذلك أحد قبله ، (الإعجاز : ص ١٤٤) . وله مقالات أخرى أيضاً أنكروها عليه ، فآل أمره إلى القتل صبراً ، ذبحه - كما يذبح الكبش - خالد القسري أمير العراق من قِبَل هشام بن عبد الملك بأمره . ذكر ذلك ابن الأثير في حوادث (سنة ١٢٥هـ) : ج ٥ ، ص ٢٦٣ ، وراجع ص ٤٢٩ منه أيضاً .

وقد جعل الأستاذ عرْفة ذلك دليلاً على قوله بالصرفة ، فهو أوَّل من ذهب هذا المذهب ، وهو وهم ؛ لأنَّه - على فرض صحَّة النسبة - إنَّما حاول بذلك إنكار أصل الإعجاز ، كما وَهَم في عيسى الرماني أيضاً قوله بالصرفة ، في حين أنَّه جعله أحد الوجوه للإعجاز ، (راجع : النكت في الإعجاز : ص ١١٠ ، قضية الإعجاز القرآني : ص ١٤٨ - ١٤٩)

^٢ الأنفال : ٣١

ويحذر قريشاً مما أصاب الأمم الخالية خلفه النظر في مجلسه إذا قام عنه ليحدثهم عن حديث رستم واسفنديار وملوك فارس ،
ويقول : والله ما محمدٌ بأحسن حديثاً مني ، ومن أحاديثه إلا (أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً)^١ .

قيل : فنزلت فيه : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ * وَذُؤَا لَوْ تَدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ
* وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٌّ بَعْدَ ذَلِكَ زَبِيمٍ * أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا
تُنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ * إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا
مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ)^٢ .

فكانت الآيات صواعق قوارع هدمت عليهم بنيانهم وأضرمت ناراً ! هكذا

جابههم القرآن بصوته المدوّى الصارخ العنيف ، وذرّ أوهامهم هباءً منثوراً ، فلو كانت لهم بقية باقية لقاموا في وجهه ، ولكن
أتى لهم التناوش من مكان بعيد ؟!

وقع النضر أسيراً يوم بدر ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) : (يا عليُّ عليّ بالنضر) ، فأخذ عليٌّ
بشعره وجره ، وكان رجلاً جميلاً متجملًا بشعره ، فجاء به إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقال : يا محمد ، أسألك
بالرحم بيني وبينك إلا أجريتنى كرجل من قريش ، إن قتلتهم قتلتنى ، وإن فاديتهم فاديتنى . فقال (صلى الله عليه وآله) : (لا
رحم بيني وبينك ، قطع الله الرحم بالإسلام ، قدّمه يا عليُّ واضرب عنقه ، فقدّمه وضرب عنقه صبراً ، لعنه الله)^٣ .

وبعد ... فلا يؤخذ من قولة صاحب نخوة وأوهامٍ شاهداً على برهان !

٢ - الاطراد من روائع البديع :

^١ الفرقان : ٥

^٢ القلم : ٧ - ٢٠

^٣ راجع ابن هشام : ج ١ ، ص ٣٨٤ ، ومجمع البيان : ج ٤ ، ص ٥٣٨ ، والدرّ المشثور : ج ٣ ، ص ١٨٠

زعم ابن حزم أن لا أعجوبة في سرد أسماء ... لكن يكذبه رائعة (الاطراد)^١ (٢) في باب البديع ، وهو : أن يطرد الشاعر أو المتكلم - عند صياغة الكلام إن نظماً أو نثراً - في سرد أسماء متعاقبة من غير كلفة ولا حشٍّ و فارغ ، قال ابن رشيق : فإنها إذا اطردت كذلك دلت على قوة طبع الشاعر وقلة كلفته ومبالاته بالشعر ، قال الأعشى :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ يرجو شبابك وائل^٢

فأتى كالماء الجاري اطراداً وقلة كلفة ، ويبين النسب حتى أخرجه عن مواضع اللبس والشبهة .

ولما سمع عبد الملك قول ابن صمة :

أبأت بعبد الله خير **إلداته** ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب^٣

قال - كالمتعجب - : لولا القافية لبلغ به إلى آدم .

وقال أبو تمام :

عبدُ المليك بن صالح بن علي بن قسيم النبي في نسبه

فهذا سهل العنان ، خفيف على اللسان ، قال ابن رشيق : وإن كانت الياء في (المليك) ضرورةً وتكلفاً .

وقال بعضهم :

مَنْ يَكُنْ رَامَ حَاجَةٍ بُعِدَتْ عَنْهُ وَأُعِيتَ عَلَيْهِ كُلُّ الْعِيَاءِ

فلما أحمد المرجي بن يحيى بن معاذ بن مسلم بن رجاء

فجاء كلامه نسقاً واحداً ، إلا أنه قد شغل البيت وفصل بين الكلام بقوله : (المرجي) ، غير أن مجانسة (رجاء) هوّت خطيئته

وغفرت ذنبه .

ثم جعل ابن رشيق يُعدّد من أنواع الاطراد وفيها تكلف من شعراء فصحاء^٤.

^١ قال ابن أبي الإصبع هو أن يطرد للمتكلم أسماء لآباء ممدوحة منسوب بعضها إلى بعض ، مرتبة على حكم ترتيبها في الميلاد ، من ذلك قوله تعالى : (وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) يوسف : ٣٨ ، قال : فالحظ ما اتفق في هذه اللفظات الست من أنواع البلاغة ، لتقدّر نظم القرآن العزيز قدره وتعرف فرق ما بينه في هذا الباب وما جاء فيه من أشعار فصحاء العرب .. ثم جعل يعدّ موارد الروعة في الآية . (بديع القرآن : ص ١٤١)

^٢ الوائل : صاحب الحاجة وطالب النجاة من المأزق

^٣ أباء القتال بالقتيل : أقاده به ، واللدة : التربّ ومن تربى معك ، وأصله : ولد بكسر الواو

وزعم أيضاً أنّ في حكاية أقوال الآخرين تحوُّلاً من الممكن إلى المعجز ...! : كلام غريب ، ولعلّه حسبه نقلاً بالحروف ! ولا شكّ أنّه نُقل بالمعنى ، لا سيّما مع النظر إلى لغاتهم غير العربية ، ويدلّك عليه سرد قضية واحدة في مواضع من القرآن في مختلف العبارات ، وإن كانت في كلّ مرة ذات مزيّة حكميّة لا تشترك فيها أختها .

وعليه ، فالكلام كلامه تعالى ؛ لأنّه من نظمه وتأليفه بالذات ، ونسبة الكلام إنّما يتحقّق بالنضد والتأليف ، الأمر الذي يكون الإعجاز فيه ، أيّاً كان لفظ المنقول عنه .

وأخيراً ، فإنّ التفاوت في درجة فضيلة البيان هي أيضاً آية أخرى ، تحلّت بها آيات القرآن الكريم ، فكان هناك بلى غ وأبلغ وفصيح وأفصح ، حسب تفاوت المقامات واختلاف المناسبات ، وقد جعل السكّاكي حدّ الإعجاز من بلاغته طرفها الأعلى وما يقرب منه ، فلا تستوى مرتبة البلاغة في الآيات ، وإن كان الجميع بالغاً حدّ الإعجاز .

٣ - إنّما يعرف ذا الفضل من العلم ذووه :

ليست معجزة نبيّ الإسلام (صلى الله عليه وآله) بدعاً من معاجز سائر الأنبياء (عليهم السلام) ؛ إذ كان نبهاء الأمم وأصحاب الاختصاص هم الذين كانوا يلمسون واقع الإعجاز ، وامتنياز المُعجز عن الممكن - فما يقدّمه الأنبياء - إنّما يعرفه أفذاذ الناس . كانت سحرة فرعون هم الذين لمسوا الحقّ في العصا واليد البيضاء ، فآمنوا به وتبعهم الآخرون ، وهكذا ، فكان سبيل القرآن - وهو أرقّ المعاجز وأرقاها - سبيل سائر المعاجز يعرفه ذوو الاختصاص من أهل الفنّ ، والأذكياء من العلماء ؛ ومن ثمّ فإنّهم هم المراجع في وضع الحقّ ودحض الأباطيل (فلسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون)^٢ .

ما الفضل إلّا لأهل العلم أنّهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

ومن ثمّ كانت شهادات أفذاذ العرب الأقحاح هو القول الفصل بشأن القرآن الكريم ، وأنّها ميزة خارقة فاق بها سائر الكلام .

تلك شهادة طاغية العرب وعظيمها الوليد بن المغيرة : (يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فو الله ما هو بعشر ولا بسحر ... وإنّ قوله لمن كلام الله ...)^١

^١ العمدة لابن رشيق : ج ٢ ، ص ٨٢ ، رقم ٦٥

^٢ النحل : ٤٣

وأيضاً قوله : والله لقد سمعت من محمد أنفأ كلاماً ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاً وةً ، وإن عليه لطلاوةً ... وإنه يعلمو وما يُعلى . وإنه ليحطّم ما تحته ...^٢ .

وشهادات فصحاء العرب وسادات قريش من هذا القبيل كثيرة ، كلّها تنمّ عن واقعية فخيمة لمسها أولئك الخواصّ ، فسار من ورائهم العوامّ .

ذكروا أن فصحاء قريش أزمعت على معارضة القرآن ، فجمعت لها جمعها ، حتّى إذا ما نزلت (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^٣ ، نظر بعضهم إلى بعض حيارى مذهولين .. فقد يئسوا ممّا طمعوا فيه ، وعرفوا أنّه ليس بكلام مخلوق^٤ .

وبذلك تبين أن لا موضع لقول السيّد المرتضى : (جميع ما شهد به الفصحاء من فصاحة القرآن فواقع موقعه ؛ لأنّ من قال بالصرف لا ينكر مزية القرآن على غيره بالفصاحة والبلاغة وإنّما يقول : هذه المزية ليست ممّا تخرق العادة!^٥) ؛ إذ شهادتهم إنّما كانت بكونه فوق مستوى البشر ، وإنه ليس من كلام المخلوقين ، وكفى به دليلاً على كونه معجزاً خارقاً للعادة ، إذ لا يقصد من الإعجاز سوى كونه فوق مقدور الإنسان ، هذا لا غير !

وقوله : (والنظم لا يصحّ فيه التزايد والتفاضل)^٦ ولعلّ على العكس فإنّ التفاضل في النظم والأسلوب شيء معروف ، وبذلك قد فاق شعرٌ عتيّد على شعر شاعر جديد ، وكان أهل الصناعة المضطلعون بالروى والقصيد قد فاقوا في نظمهم على المبتدئين المتكّلين ، وكان الأسلوب هو الذى أشال بهؤلاء وأطاح بهؤلاء !

قال أبو عثمان الجاحظ : أجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء ، سهل

المخارج ، فتعلم بذلك أنّه أفرغ إفراغاً واحداً ، وسبّك سبكاً واحداً ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

^١ تفسير الطبرى : ج ٢٩ ، ص ٩٨

^٢ مستدرک الحاكم : ج ٢ ، ص ٥٠٧

^٣ هود : ٤٤

^٤ العمدة لابن رشيق : ج ١ ، ص ٢١١ ، ومجمع البيان : ج ٥ ، ص ١٦٥

^٥ راجع التمهيد : ج ٤ ، ص ١٦٢

^٦ راجع التمهيد : ج ٤ ، ص ١٥٩

قال ابن رشيق : وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سمعه ، وخفّ مُحتمله ، وقرّب فهمه ، وعذّب النطق به ، وحلّى في فم سامعه ، فإذا كان متنافراً متبائناً عسّر حفظه ، وثقل على اللسان النطق به ، ومجّته المسامع فلم يستقرّ فيها منه شيء^١ .

وأنشد الجاحظ :

وبعض قريض القوم أبناءُ علّةٍ يكدّ لسانَ الناطقِ المُتَحَفِّظِ
وأيضاً :

وشعرٍ كَبِعِ الكَبْشِ فرقَ بينه لسانٌ دعى في القريضِ دخيلِ
واستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظة واحدة لخفّته وسهولته ، واللفظة كأنّها حرف واحد ، وأنشد قول الثقفى .

مَنْ كان ذا عَضْدٍ يُدرك ظلامته إنّ الدليلَ الذى ليست له ! عَضْدُ
تنبو يدها إذا ما قلَّ ! أناصره ويأنف الضيمَ إنّ أثرى له عَدْدُ^٢

إذاً فالنظم نظم ، ووزنه وزن شعر ، لكن شتّان ما بين النظمين ، هذا عذب فرات ، وذاك ملح أجاج ، فى هذا سهولة وفى ذاك وعورة ، وهكذا القرآن ، فاق سائر الكلام فى عذوبة نظمه ، وسهولة أسلوبه ، فى روعة وأناقة وجلال ، وهذا من سرّ إعجازه الخارق .

وأما الدليل الذى أقاموه من أنّ القادر على الأبعاد قادر على الجملة ، فقد أجاب عنه التفتازانى بأنّ حكم الجملة يُخالف حكم الأجزاء ، ولو صحّ ما ذكر لكان كلّ من آحاد العرب قادراً على الإتيان بمثل قصائد فصحاءهم كامرى القيس وأضرابه .

وأما تردّد الصحابة فى بعض الآيات والسور فلعلّه كان لرعاية الاحتياط والاحتراز عن أدنى ملابسة ... على أنّ الإعجاز فى جميع مراتبه وفى جميع الآيات ليس ممّا يظهر لكلّ أحد على سواء^١ .

^١ العمدة لابن رشيق : ج ١ ، ص ٢٥٧

^٢ ينبو السيف : يكلّ ولا يكون قاطعاً ، وأثرى : كثر وتوفّر

وقول السيّد : (لو عارضوه بشعر منظوم لم يكونوا معارضين)^٢ .

هذا إذا كان التحديّ ناظراً إلى جانب النظم والأسلوب فحسب ، أمّا إذا كانت فضيلة الكلام هي الملحوظة في هذه المباراة والمقصودة من تلك المباهاة فهذا ممّا لا يفترق فيه بين منظوم الكلام ومنثوره ، شعره وخطبه ، في أيّ صيغة بُنى عليها الكلام أو رُصفت حروفه وكلماته ، ما دامت العبرة بجودة التعبير وحسن الأداء ، هذا ، ولا سيّما قد أطلق التحديّ في القرآن إطلاقاً : لو يأتوا بحديث مثله ... أي في شرف الكلام وفضيلته ، شعراً منظوماً أو كلاماً منثوراً ، أيّاً كان نمطه إذا كان يماثله في الأُبّهة والبهاء ، ومع ذلك فقد كلّت قرائحهم أن يقابله وضنّت أذهانهم أن يعارضوه ؛ لمّا رأوه فوق مستواهم السحيق ، فقصرت الأبدى أن تناله وهو في مستواه ذلك الرفيع .

وفي الختام ، نعود على ما بدأنا به من توجيه كلام الشريف المرتضى في الصرفة ، بأنّها من جهة فقد العرب للإمكانات اللازمة في صياغة كلام مثل القرآن ، فقد سلبوا التوفيق عليه وخذلهم الله على إصرارهم في معا ندة الحقّ ، (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)^٣ .

دحض شبهة الصرفة :

هذا وقد هبّ العلماء جميعاً قديماً وحديثاً يفنّدون مزاعم القول بالصرفة ، إمّا

برهاناً عقلياً أو خطابةً وجدلاً بالتى هي أحسن ، في دلائل ومسايل نعرض أهمّها ونقتصر عليها ؛ لأنّ فيها الكفاية والوفاء .

وقبل أن نرد التفصيل نقدّم خلاصةً من تلك الردود والدلائل :

أولاً : مخالفة هذا المذهب لظاهرة التحديّ القائمة على المباهاة ، ولا مباهاة على صنيع لا ميزة فيه سوى سلطة صانعه على منع الآخرين قهرياً من مماثلته ! كمّن باهى بوضع يده على رأسه وتحديّ الآخرين أن يصنعوا بمثله ، لكنّهم لما أرادوا مماثلة أخذ بيدهم ومنعهم من ذلك منعاً ، أفهل يعدّ ذلك من المباهاة ؟!

أو كمّن استهدف غرضاً دقيقاً مباهاياً ، لكنّه سلب صاحبه بندقته ، ولولاه لتمكّن من مماثلته ، ليس هذا تحديّاً ولا مباهاةً البتّة .

^١ شرح المقاصد : ج ٢ ، ص ١٨٤

^٢ راجع التمهيد : ج ٤ ، ص ١٥٨

^٣ الصف : ٥

والخلاصة : أنَّ المباهاة بالصنيع إنما تتعقّل إذا كان الصنيع ذاته مشتملاً على مزية خارق وبديعة عجيبة ، ليس إلاّ .

ثانياً : لكان ينبغي أن يتعجّبوا من أنفسهم هذا التحوّل المفاجئ لهم ، بالأمس كانوا قادرين واليوم أصبحوا عاجزين ، فلم يكن موضع إعجاب بالقرآن الكريم ، ولا أن تبهرهم روعته ، في بديع نظمه وعجيب رصفه .

وأنّ شهادتهم - برشاقة أسلوبه و أناقة سبكه وتأليفه ، فضلاً عن فخامة معانيه ورصانة مبانيه - لأعظم دليل على سموّ وشموخ لمسوه في جوهر القرآن ووجوده في ذاته ، لا شيء سواه .

ثالثاً : لا مباهاة مع مسلوب القدرة ، هو والميت سواء ، ولا تحدّى مع الأموات ، قلّوا أم كثروا ، فإنّ كثرتهم لا تجدى شيئاً بعد كونه من ضمّ الحجر إلى المدر ، ولا حراك في الجماد .

ومِن ثَمَّ فمن المُستغرب ما زعمه ابن حزم من قياس ما هنا بمسألة الجبر

وسلب الاختيار^١ ! فقد ذهب عن أن لا علاقة بين المسألتين ولا تناسب بين المفهومين : المباهاة وسلب الاختيار !

أمّا السيّد وأصحابه - وكذا النظم في احتمال - فلم ينكروا اعتلاء جانب القرآن بما فاق سائر الكلام ؛ إمّا في فصاحته البالغة

كما ذكره السيّد ، أو لاشتماله على الأمور الغيبية كما ذكره النظم ، وإنّما عجز القوم عن مماثلته لفقداهم العلوم التي كان

يمكنهم بذلك مقابله ، ولعلّ البشرية أجمع تعوزها تلك القدرة المحيطة على جمع الامتيازات المشتمل عليها القرآن الكريم .

^١ الأنبياء : ٢٣

مقدمه :

آیت الله معرفت در مقدمه‌ای ضمن بزرگ شمردن شخصیت کسانی که به صرفه قائل شده اند مسئله ای را بیان می‌کند که این گروه را به سمت دیدگاه صرفه سوق داده است. وی به این نتیجه می‌رسد که عدم تبیین صحیح و کامل اعجاز بیانی قرآن، سبب گرایش برخی به دیدگاه صرفه شده است. وی ضمن نقد و بررسی دیدگاه صرفه و پاسخ به برخی اشکالات وارده بر این دیدگاه، به تقریر مسئله اعجاز بیانی قرآن به صورتی دیگر می‌پردازد.

نقد و بررسی دیدگاه صرفه :

پیشتر دلایلی که قائلان به صرفه به آن استناد کردند بیان شد. ولی ما معتقدیم علتی که سبب شد آنها این نظر را برگزینند، به خاطر وجود دلایلی می‌باشد. خصوصاً کسانی این دیدگاه را برگزیده اند که دارای نگاهی نقاد، خالص و از پیشوایان نقد و بررسی هستند و اهل اظهار نظر خودسرانه نبوده و قصد سست کردن عقاید را نیز نداشتند. گرچه به نظر می‌رسد دلایل آنها ظاهری و اشکال هایشان شکلی باشد اما چون دارای شخصیت های برجسته‌ای هستند، ممکن است پشت این دلایل، مسئله مهم و محکمی وجود داشته باشد. به نظر می‌رسد که این گروه با نارسایی دلایل کسانی مواجه شدند که اعجاز قرآن را در لفظ و سبک و اسلوب خاص آن معرفی می‌کردند و البته این جهت اعجاز نیز امری بسیار مهم است. مسئله لفظ و سبک بیان زیبا، امری غیر ممکن و در مرتبه اعجاز نیست و می‌توان نمونه‌ها و قطعه‌هایی، در فرهنگهای مختلف پیدا کرد که دارای نظم بدیع و نثری با شکوه و زیبا و شگفت انگیز باشند.

تقریر آیت الله معرفت از مسئله اعجاز بیانی :

آیت الله معرفت در تقریر و ترسیم اعجاز بیانی می‌گوید : ما نیز تا این اندازه، با پیروان نظریه صرفه همراهیم که اعجاز قرآن در لفظ تنها نیست؛ جز آن که به اعتقاد ما، اعجاز بیانی قرآن به این مقدار محدود نمی‌گردد و به سبک زیبا و نظم شیوا و بدیع آن و محسنات و آرایه های لفظی و معنوی منحصر نمی‌شود و این مقدار تنها بخشی از اعجاز بیانی قرآن را

شکل می‌دهد. عامل قوی‌تر اعجاز بیانی قرآن در روح جذاب و دلربای نسیم تازه آن و معانی بلند و زیبایی و آراستگی تعبیر آن است. این جنبه‌ی لفظ و معناست که وقتی با هم جمع شود، نظیر آن در کلام بشر به ندرت یافت می‌شود و یا اصلاً یافت نمی‌شود و این همان ویژگی منحصر به فرد قرآن کریم است.

بی‌مانندی قرآن در کلام عرب :

شکوه و زیبایی قرآن ناشی از همساز بودن زیبایی لفظ با شکوه معنا و شگفت انگیزی صورت با عظمت محتواست که مانندی برای آن نمی‌توان یافت. قرآن برای عرب، به سبکی شگفت نازل شد و همچنین برای همه مردم اعجاب انگیز است. نه مانند شعر و نه مانند نثر آنهاست، بلکه نثری است که دارای ویژگیهای شعر است. بیهودگی سجع و یاوه سرایی کهانت را ندارد. شیرین و ظریف، جذاب و بلند مرتبه است. اگر نظام و همفکرانش از کلام عرب یا غیر عرب متنی می - شناسند که دارای این ویژگیها باشد، شاهدهی بیاورند. در حالی که مشرکان عرب از آوردن مانندی برای آن ناتوان بودند، گر چه بر این کار گردآمدند. اگر بخواهند به برخی از ویژگیها که در کلام عرب وجود دارد، مباحثات کنند؛ آن را انکار نمی‌کنیم ولی خاطر نشان می‌کنیم که تحدی قرآن و اعجازش به همه ویژگیهایش است. آیت الله معرفت ویژگی‌های قرآن را در کلام عرب بی‌مانند می‌داند.

اطراد، از شگفتیهای بدیع :

ابن حزم ظاهری از قائلان نظریه صرفه بر آن نظر بود که همه آیات قرآن در اوج بلاغت نیست؛ برای نمونه وی به این قبیل آیات اشاره می‌کند که تعدادی نام پی‌درپی آمده است.^۱ وی این شیوه را فاقد اعجاز و اوج بلاغت می‌داند. آیت الله معرفت در پاسخ به این اشکال می‌گوید: ابن حزم گمان کرده که در ذکر نامها هیچ اعجازی وجود ندارد، وی با این سخن شگفتی صنعت اطراد را در علم بدیع، منکر شده است. اطراد، صنعتی است در بدیع که شاعر یا گوینده در سخن نامهایی را پی‌درپی می‌آورد؛ بدون این که کلامش سختی و خشوی داشته باشد. که نمونه‌ای از آن در شعر «الاعشی» و

^۱ «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْمَاعِيلَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْبَاطَ وَ عِيسَى وَ يُوسُفَ وَ هَارُونَ وَ سُلَيْمَانَ وَ آتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا» نساء/۱۶۳

دیگران آمده است. همچنین ابن حزم بر این نظر است که در نقل حکایت گذشتگان به شکل های مختلف اعجازی نیست. آیت الله معرفت با اظهار تعجب از این سخن در پاسخ این اشکال می گوید: این مساله، دلالت می کند که در نقل ماجرای واحد در قرآن با عبارتهای مختلف، حکمتی وجود دارد که در نظیرش همان حکمت تکرار نشده است. نکته پایانی: درجه و مرتبه بلاغت در همه آیات یکسان نیست و آیات قرآن دارای این درجه بندی هستند، و در موقعیت ها و مناسبت های مختلف، برخی بلیغ و برخی بلیغ ترند .

اعتراف عالمان، به برتری قرآن

معجزه را صاحبان فن و دانشمندان تیزفهم، تشخیص می دهند. مردان بی همتای شعر و ادب، مانند ولیدبن مغیره، آن را خارق العاده نامیدند. بنابراین دیگر برای دیدگاه صرفه جایگاهی نیست. همه آنها که به فصاحت قرآن گواهی دادند در تاریخ ثبت شده اند و کسانی که قائل به صرفه شدند، قرآن را دارای برتری می دانند اما می گویند این برتری امری خارق العاده نیست.

رد شبهه صرفه :

دانشمندان از گذشته تا کنون نظریه صرفه در اعجاز را با برهان عقلی یا خطابه و یا جدال احسن، به تفصیل بیان کرده اند. خلاصه ای از آن چه تا کرون آوردیم را بیان می کنیم.

یک: مخالفت تفکر صرفه با تحدی بر نوعی فخرفروشی استوار است، در صورتی که فخر فروختن خالق بر مخلوق روا نیست و این برتری جویی به خاطر سلطه آفریدگار است که دیگران را به اجبار از آوردن مانند قرآن منع کرده است. مثل این که به زور دست کسی را نگه داری و از او بخواهی چیزی بسازد . خلاصه آن که، که فخرفروشی و برتری جویی بر مخلوق وقتی عاقلانه است که مخلوق ذاتاً توانایی انجام آن را داشته باشد.

دو: اگر منع و سلب به این صورت بوده که عرب قبل از نزول قرآن، توانایی آوردن مانند قرآن را داشته ، اما پس از نزول این توانایی از او گرفته شده است، بنابراین شایسته است عرب از این دگرگونی ناگهانی که در او رخ داده تعجب کند .

دیروز توانا بوده و ناگهان امروز ناتوان شده است. اگر چنین بود؛ از زیبایی و نظم و چینش بدیع قرآن اظهار شگفتی نمی - کردند و آن را بزرگ نمی شمردند و بر دارا بودن این ویژگی ها گواهی نمی دادند و سر تعظیم فرود نمی آوردند.^۱

سه: کسی که قدرت از او سلب شده چون مُرده است و با او نمی توان هم آوردی کرد. جای شگفتی است، کسانی گمان کرده اند این مساله با جبر و سلب اختیار ارتباط دارد. در صورتی که میان برتری جویی و سلب اختیار ارتباطی نیست.

خلاصه آن که: سید مرتضی و همفکرانش و نیز نظام، برتری قرآن را بر دیگر سخنان انکار نمی کنند. قرآن فصاحت بالایی دارد، آن گونه که سید مرتضی می گوید، یا آن گونه که نظام گفته است: قرآن دربردارنده اخبار غیبی است. بلکه ناتوانی مردم از آوردن چیزی شبیه قرآن، از آن رو است که آن علومی که با داشتن آن، امکان مقابله را داشته باشد، را دارا نیستند.

^۱ . اگر بگوییم خداوند پس از نزول قرآن عرب را از معارضه بازداشت- و فرض این است که قبل از نزول قرآن عرب قادر به آوردن سخنی مشابه با قرآن بود- در این صورت عرب باید با سخنان خود که قبل از نزول قرآن ساخته بود به معارضه با قرآن برمی خواست زیرا از این جهت تفاوتی میان کلام عرب بعد از نزول قرآن و قبل از نزول قرآن نبود. در متون عربی پیش از نزول موردی یافت نمی شود که در متون پس از نزول وجود نداشته باشد.

۱. آیت الله معرفت نظریه صرفه را نمی‌پذیرد؛ اما فائلان آن را افرادی دقیق و نکته سنج می‌داند.
۲. آیت الله معرفت بر این نکته توجه کرده که وجود مسئله‌ای، برخی را به سمت نظریه صرفه سوق داده است.
۳. آیت الله معرفت بر این نظر است که اگر مسئله اعجاز بیانی به شکلی دقیق تر و کامل تر تقریر شود، قابل دفاع است و دیگر نظریه صرفه جایگاهی نخواهد داشت.
۴. به نظر آیت الله معرفت اگر اعجاز را در حد لفظ و سبک و اسلوب زیبا بدانیم، آوردن شبیه آن غیر ممکن نیست.
۵. به نظر آیت الله معرفت گر چه در کلام عرب برخی ویژگی‌های بلاغی را می‌توان یافت، اما تحدی قرآن و اعجازش به همه‌ی ویژگی‌هایش است.
۶. آیت الله معرفت معتقد است که پیوند زیبایی لفظ با معانی بلند اعجاز بیانی قرآن را تشکیل می‌دهد.
۷. به نظر ابن حزم، همه‌ی آیات قرآن بلاغتی در یک درجه را ندارند.
۸. به نظر ابن حزم، برخی آیات که چندین نام پی در پی آمده، هیچ گونه اعجازی ندارند.
۹. آیت الله معرفت در پاسخ ابن حزم، پی‌درپی آمدن نام‌ها را در قرآن، نوعی صنعت اطّراد، از صنایع بدیعی می‌داند. و برخی آیات قرآن را بلیغ و برخی دیگر را بلیغ‌تر به شمار می‌آورد.
۱۰. به نظر آیت الله معرفت، نقل ماجراهای مختلف در قرآن، هر یک دارای حکمتی است.
۱۱. اعتراف عالمان و ادیبان عرب بر بی‌مانندی قرآن نشان‌دهنده‌ی اعجاز آن است.
۱۲. تفکر صرفه بر نوعی فخر فروشی استوار است، در حالی که فخر فروشی خالق بر مخلوق روا نیست.
۱۳. برتری جویی نباید با سلب اختیار همراه باشد.